الأستاذة: خميسي

المحاضرة الرابعة: السرديات الشعبية: (الملاحم)

تمهيد:

يمثل السرد أحد أهم أشكال التعبير الإنساني، إذ يرتبط لقدرة الانسان على حكي التجارب وتنظيم العالم عبر اللغة، ومع تطور الدراسات الحديثة ظهر مفهوم السردية باعتبارها البنية التي تنظم الحكاية وتمنحها معناها، وقد تدرج ظهور السرديات من الروايات الشفوية الأولى الى أشكال الحكي المدونة، أما السرديات الشعبية فهي الامتداد الطبيعي لهذا التراث الحكائي، إذ تقوم على روايات وملاحم تتناقلها الجماعة عبر الذاكرة الشفهية معبرة عن قيمتها وتصوراتها للعالم.

فماهي الملاحم؟

مفهوم الملاحم:

أ: لغة:

وردت عدة تعاريف لغوية لمصطلح الملحمة تُجْمِعُ أغلبها أن **المَلْحَمَةُ** الحربُ الشديدة ... و**المَلْحَمَةُ** : موضعُ الحرب ...**المَلْحَمَةُ** :عمل قصصيٌّ له قواعدُ وأصول، يشاد فيه بذكر الأبطال والملوك وآلهة الوثنين، ويقوم على الخوارق والأساطير"ويذكر تابن منظور في لسان العرب أن الملحمة " لَحِمَ الرَّجُلُ يَلْحَمُ لَحْمًا : قَتَلَ.واللَّحْمُ :القَتْلُ.ولَحَمَ الأَمْرَ يَلْحَمُهُ لَحْمًا :أَحْكَمَهُ وَأَصْلَحَهُ، المَلْحَمَةُ : الوَاقِعَةُ العَظِيمَةُ مِنَ القِتَالِ، وَقِيلَ : مَوْضِعُ القِتَالِ، وأَلْحَمْتُ القَوْمَ :إِذَا قَتَلْتَهُمْ حَتّى صَارُوا لَحْمًا، أَلْحَمَ الرَّجُلُ إِلْحَامًا. واسْتَلْحَمَ اسْتِلْحَامًا :إِذَا اشْتَبَكَ فِي الحَرْبِ فَلَمْ يَجِدْ لَهَا مُخَلَّصًا. وأَلْحَمْتُهُ الحَرْبَ :أَدْخَلْتُهُ فِي لَحْمِ القِتَالِ وَشِدَّتِهِ"[1].

فالملحمة في أصل أصلها اللغوي مشتقة من الجذر (ل حِ مَ)، الذي يدل على القتل والالتحام وشدة الوقائع، ويَستَعمِلُ العرب لفظ **الملحمة** للدلالة على الحرب العظيمة التي يشتد فيها القتال حتى يختلط الناس كاختلاط اللحم، كما يرتبط اللفظ بمعاني التداخل والاشتباك الذي لا مخرج منه، وهو ما تُعبر عنه صيغة (**استلحم**)، ومن ثم غلب استعمال **الملحمة** على المعارك الكبرى التي تبلغ حد الفناء وشدة الاختلاط.

ب: اصطلاحا:

هي عبارة عن شعر قصصي قومي بطولي يروي أحداث خارقة لا يمكن للأشخاص العاديين أن يأتوا بمثلها، وأهم ما في هذا الشعر عنصر الخيال الذي يسرف في ابتداع الصور المتنوعة ويغالي في تضخيم

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، (د ط)، 1414هـ، مادة (ل ح م).

المعارك، فإذا الغريب والمدهش طوع البنان، والخارق حدثٌ يومي مألوفٌ،[2] وإلى جانب تصوير الأحداث الخارقة تعمد الملحمة إلى إبراز أبطال يفوقون مستوى البشر، حيث يكونون أقرب ما يكون إلى الكائنات الأسطورية التي تُخلدها أعمال عظيمة في الذاكرة الجماعية، فقد حلم الإنسان دائما بامتلاك قدرات تتجاوز طاقته الطبيعية، وهو ما جعل الملاحم تعكس صورة المجتمعات وتفكيرهم، فهي ليست حكرا على فئة دون أخرى، بل امتداد من الأزمان الغابرة إلى العصر الحديث وقد ظهر ذلك جليا خاصة مع الأعمال السينمائية التي تصور شخصيات خارقة فوق قوة البشر العاديين: مثل **السوبرمان والباتمان** كما توجد قصص عن الغزو القادم من عوالم أخرى للكرة الأرضية، غير أن الاختلاف يظل واضحا وجليا بين ملاحم الأمس وملاحم اليوم سواء من حيث التأليف أو الأساليب السردية أو الروائية الكفيلة، أو الخلفيات الثقافية التي تستند إليها كل ملحمة.

فالملحمة مرتبطة بالقول والحكاية والسرد الطويل، ويعكس هذا المعنى الطابع الأساسي للملحمة، إذ إنها ليست مجرد شعر عابر، بل سرد بطولي طويل يخلد الأحداث البطولية أو الأسطورية أو التاريخية . وقد أُبرز هذا الطابع في أعمال هوميروس مثل الإلياذة والأوديسة، حيث تركز الملحمة على أبطال خارقين أو شبه خارقين، وتواجههم تحديات جسيمة، وفي الوقت نفسه تتداخل فيها عناصر إلهية وطبيعية .ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الملحمة اليونانية لم تكن مجرد حكاية، بل كانت وسيلة ثقافية لنقل القيم والمثل العليا للمجتمع، وتوثيق أحداثه الهامة بأسلوب شعري يخلدها في الذاكرة الجماعية، فهي قصص تَحكي على شكل معجزات، ما قام به هؤلاء الأبطال وما به سموا عن الناس، وعنصر القصة واضح في الملحمة، فالحوادث تتوالى متمشية مع التطورات النفسية التي يستلزمها تسلسل الأحداث ولكن لكل ملحمة أصل تاريخي صدرت عنه بعد أن حُرفت تحريفا يتفق وجو الخيال في الملحمة، وهي محكية لشعب يخلط بين الحقيقة والتاريخ مما يسير أن تحدث خوارق العادات وأن يتراءى الإنس والجان والآلهة، والأبطال فيها يمثلون جنسهم وعصرهم ومدينتهم[3]،

كما تعد الملحمة جنساً أدبياً يقوم على قصيدة طويلة نفس تُشّيدُ أساساً لتمجيد مُثلِ جمعية كبرى، سواء كانت دينية أو وطنية أو إنسانية، وتجسد الملحمة هذا المُثل عبر تصوير مآثر بطل حقيقي أو أسطوري، تتجسم فيه الروح البطولية والقيم العليا، وتمتاز الملاحم ببنية قصصية حماسية وبأسلوب رفيع يشتمل على أحداث خارقة وأفعال عجيبة تشد الانتباه وتمنح النص بعداً تخيلياً ثرياً، كما تتخلل الملحمة

---

[2]- ينظر: أنطوانيوس بطرس، الأدب تعريفه وأنواعه ومذاهبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، طرابلس لبنان، طبعة 1، 2013، صفحة 51.

[3]- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1997، ص90.

حكايات وأخبار متنوعة تنسج سيرة البطل ضمن عالم حكاءي متكامل وهو ما يجعل الملاحم الكبرى مثل الإلياذة والأوديسة نموذجاً تأسيسياً للتنظير الملحمي في الدراسات الأدبي[4].

وهكذا يتضح أن الملحمة ليست مجرد نص شعري طويل، بل هي بناء سردي وفكري متكامل يجمع بين التاريخ والخيال، وبين البطولة الفردية والهمم الجمعية، وبين الواقع والأسطورة. فهي تجسد رؤية الإنسان للعالم، وللقيم التي يرغب في تخليدها عبر الحكاية الشعرية. وبعد الوقوف على مختلف التعريفات القديمة والحديثة على حد سواء، يمكن القول إن الملحمة تشكل أحد أعمق أشكال التعبير الإنساني وعن تطلعه إلى البطولة والمعنى.

2- تاريخ الملحمة:

أ- *عند الغرب*:

وإذا أردنا التوقف عند تاريخ الملاحم، فإن البداية تكون بالضرورة عن الغرب، حيث ازدهرت أعرق الملاحم التي حظيت بشهرة عالمية وعلى رأسها **الإلياذة والأوديسة** المنسوبتان إلى الشاعر الإغريقي **هوميروس** الذي يرجح أنه عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وقد اشتق اسم الملحمة الأولى **الإلياذة من إليو** وهو أحد أسماء مدينة طروادة الذي يشكل محور أحداثها وتتناول الملحمة حربا ضاربة نشبت بين الإغريق والطرواديين عقب اختطاف أحد أمراء طروادة لملكة اليونان هيلانة الأمر الذي دفع الإغريق إلى تجهيز جيوش ضخمة ومحاصرة طروادة لمدة عشر سنوات غير أن **الإلياذة** لا تروي إلا أحداث الأشهر الأخيرة من هذه الحرب، وفي مقدمتها النزال الحاسم بين بطل الإغريق **إخيل** وبطل الطرواديون **هكتور**وانتصار الأول على الثاني وتقع الملحمة في أربعة وعشرين نشيدا، تمجد من خلالها بطولات **إخيل** وأمجاده وأفعاله التي خلدها التراث الإنساني، أما الأوديسة حملت اسم بطلها أوليسيوس فهي تروي سلسلة الأحداث والمحن التي يواجهها هذا البطل الإغريقي في طريق عودته إلى وطنه عقب انتهاء حرب طروادة. وتمتد رحلته العاصفة هذه عشر سنوات كاملة. يقطع خلالها البحارة ويصدم بقوى خارقة، ومخلوقات عجيبة قبل أن يبلغ بيته أخيرا بسلام، وتنتهي الملحمة نهاية سعيدة، إذ يتمكن أوليسيوس من القضاء على خصمه الذين التفوا حول منزله طمعا في الزواج من زوجته خلال فترة غيابه الطويلة[5].

---

[4]- *ينظر:* محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية لبنان، ط2 ج2، ص 823.

[5]- *ينظر:* فائق مصطفى وعبد الرضى علي، النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل العراق، ط1،1989، ص 144.

غير أن هناك من يشكك في نسبة هاتين الملحمتين إلى هوميروس، إذ ظهرت أراء متعددة تقول بأن الإلياذة ليست من نظمه كاملة، وأن **هوميروس** لم يضع سوى عددا من أنشيدها فقط، بينما أضيفت بقية الأقسام لاحقاً على يد شعراء مقلدين، ويستند أصحاب هذا الرأي إلى أن الكتابة لم تكن معروفة في ذلك العصر، وأن الذاكرة الشفوية مهما بلغت قوتها وذروتها لا يمكنها أن تستوعب هذا الكم الهائل من الشعر. فالإلياذة وحدها كانت يزيد حجمها عن خمسة عشر ألاف بيت من الشعر، وهو ما يجعل مسألة حفظها ونقلها بدقة أمراً محل شك عند هؤلاء الباحث.

وعند الانتقال الى الملحمة في الأدب الروماني نجد أن هذا الجنس الأدبي قد انتقل من اليونان الى روما ليحمل معه الطابع ذاته، من تمجيد للبطولات واستلهاما للأساطير وتصويرا لعجائب العالم الوثني القديم، وقد تأثر الشاعر اللاتيني **فرجيل** بالملاحم اليونانية، فصاغ ملحمته الشهيرة الإنيادة، التي تروي قصة البطل **إينيوس** مؤسس روما الأسطوري، وقد حرص **فرجيل** على إرجاع نسبه إلى الأسرة الطروادية الحاكمة، أسرة الملك **بريام** ليمنح لروما جذورا مجدية تمتد إلى الملاحم القديمة وتستعرض الإنيادة ما خاضه **إينيوس** من حروب وما حققه من انتصارات على أمم متوحشة، إلى أن تمكن من التغلب على خصومه وتأسيس مدينة روما الخالدة التي ستصبح لاحقا عاصمة للإمبراطورية الرومانية الممتدة من أوروبا إلى أفريقيا وآسيا، وتعد هذه الملحمة عملا وطنيا واسعا غنيا بالأساطير والمظاهر الدينية وخوارق الأحداث حتى أن **فرجيل** يصف فيها رحلة إينيوس إلى العالم الآخر وما شاهده هناك من أرواح الأبطال[6].

أما إذا ذهبنا إلى الملاحم في الأدب الإيطالي فنجد أن ملحمة **دانتي** الشهيرة التي أتمها سنة 1317 ميلادي والمعروفة باسم **الكوميديا الإلهية**، حيث تتكون هذه الملحمة من ثلاث أقسام كبرى وهي: **الجحيم والمطهر والجنة**، ويضم كل قسم منها ثلاثة وثلاثين نشيدًا متساويًا في عدد الأبيات، ويروي **دانتي** في هذا العمل رحلة تخيلية يقوم بها عبر دوائر الجحيم التسع بصحبة الشاعر اللاتيني **فرجيل** ثم يواصل مسيره منفردا إلى جبل **المطهر** حيث يلتقي بمحبوبته **بيا تريس** فترافقه إلى الجنة، وتتمحور موضوعات هذه الملحمة حول طبيعة الإنسان وموقفه من العدالة الإلهية، إذ حاول **دانتي** أن يقدم فيها رؤياه الدينية والفلسفية والاجتماعية، مؤكدا أن حرية الإنسان في اختياراته ومسؤوليته عن أفعاله، وأن الحساب في الآخرة ما هو إلا نتاج مباشر للأعمال الدنيا، ولذا قسم دوائر الجحيم إلى تسع طبقات ووضع في كل دائرة صنفا من المذنبين بحسب خطاياهم في بنية رمزية تعكس تصوره الأخلاقي والكوني[7].

---

[6]- *ينظر*: محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط5، 2005، ص50.

[7]- *ينظر*: أنطوانيوس بطرس، مرجع سابق، ص 64، 65.

أما بالرجوع إلى الشرق القديم، فقد عرف أيضًا العديد من الملاحم الشعرية أبرزها ما قدمته الهند من ملحمتي **المهباراتا والرمابانا** في العصر الوسيط. وبرزت في المشرق ملحمة **الشهنامة** التي ألفها الشاعر الفارسي الكبير **الفردوسي**، وقد ترجمت إلى العربية على يد **عبد الوهاب عزام**. وتتضمن هذه الملاحم الثلاثة الخصائص نفسها التي وجدت في الإلياذة والأوديسا، حيث تضم كل ملحمة قصة بطولية قائمة على أحداث خارقة، وجمع بين الأساطير والمعتقدات الدينية لتصبح بذلك تمزج بين الأساطير التاريخية والأحداث الواقعية، ما يجعلها أعمال غنية بالخيال والفكر والبعد التاريخي[8].

أما إذا أردنا الحديث عن الملاحم عن العرب القدامى فإننا ننظر إليها من زاوية تثبت وجودها لأن الحياة القبلية في العصر الجاهلي كانت مليئة بالأحداث والبطولات والفروسية والغزوات والمفاخر والقبلي، فضلاً عن الأسواق الشعرية والخطابة والحروب والخوارق ما يجعلها من حيث المواد الأولية صالحة لنشوء الملاحم، إلا أن الشعر العربي في هذه الحقبة لم يشهد تكوين الملاحم بمعناه الكامل الذي عرف اليوم، إذ لم تتوافر فيه عناصر الاستقرار الاجتماعي أو التنظيم الذي يسمح ببناء نصوص ملحمية طويلة ومرتبة، حيث كان المجتمع قبلياً والشعراء يعتمدون على الارتجال الشفوي ويعبرون عن الذاتية الغنائية أكثر من السرد البطولي الملحمي، ما يجعل الشعر انعكاسا للحياة اليومية والحس الشعوري الشخصي أكثر من كونه نص ملحميا متكاملا، ومع ذلك ظهرت في الشعر الجاهلي بعض الإرهاصات والإشارات الملحمة كما في المعلقات وقصائد **عنتربن شداد وعمربن كلثوم والحارث بن حلزة**، حيث نلمس حضور البطولات الفردية والقتال والمفاخر القبلية والخيال البطولي، هذه القصائد تحمل بعض مميزات الملحمة من حيث تصور البطولة والمغامرة لكنها لا تشكل ملحمة كاملة بالمعنى الأدبي المتعارف عليه بسبب غياب التدوين والاستمرارية التنظيمية[9]،.

وبالحديث عن العصر الحديث، فقد شهد الشعر العربي عدة محاولات لكتابة ملاحم وطنية ودينية على نمط الملاحم الكلاسيكية القديم. فقد ألف **شفيق المعلوف** ملحمة بعنوان **عبقري** وكتب **محمد توفيق** ملحمة أطلق عليها اسم **المعلقة الإسلامية**. كما كتب **فوزي المعلوف** ملحمته بعنوان على **بساط الريح**. في حين قدم **أحمد محرم** ما سماه **الإلياذة الإسلامية**. وكان **أحمد شوقي** قبل هؤلاء قد نظم قصيدة مطولة تضم 264 بيتا بعنوان **كبار الحوادث في وادي النيل**. تناول فيها تاريخ مصر الفرعوني وافتتحها ببيت الشهير (وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي). أما في الجزائر فقد كتب **مفدي زكريا** إلياذته

---

[8]- ينظر : محمد مندور، الأدب وفنونه، مرجع سابق، ص 51.

[9]-جورج غريب الشعر الملحمي تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت لبنان (د ط)، (د ت)، ص 10.

الشهيرة تناول فيها تاريخ الجزائر بداية من قبل الفتح الإسلامي وصولا إلى الاستقلال من الاستعمار الفرنسي. ومن بين أبياتها (تأذن رب ليلة قدر وألقى الستار على ألف شهر)، تدل هذه الأعمال الحديثة على استمرار روح الملحمة العربية وتحولها في العصر الحديث إلى أداة لتوثيق التاريخ والهوية البطنية والدينية مع الاحتفاظ بالصور البطلات والخيالية التي تميز الملحمة الكلاسيكي[10].

خصائص الملحمة:

1. ***مجهولية المؤلف:*** حيث تمتاز في أغلب نماذجها القديمة بغياب اسم المبدع الأصلي، إذ تنسب إلى الذاكرة الجماعية، وترجع جذورها إلى عصور موغلة في القدم يصعب تحديد زمانها بدقة.
2. ***الامتداد الزمني التاريخي:*** تعود الملاحم إلى أصول تاريخية بعيدة، فهي نتاج تراكمي سردية وحكائية متوارث عبر الأزمنة، مما يجعل زمن نشآتها الحقيقي عسير التحديد.
3. ***الطابع الشعري المطول:*** تأتي الملحمة عادة في شكل قصيدة طويلة جدا، قد يصل عدد أبياتها إلى ألاف الأبيات، وهو ما يعكس طبيعتها السردية الواسعة وتفاصيلها المتشعبة.
4. ***التداخل بين التاريخ والخيال:*** تجمع الملحمة بين الوقائع التاريخية أو ما يشابهها وبين العناصر العجائبية والأسطورية، ويصور البطل غالبا بصفات خارقة تتجاوز القدرة البشرية.
5. ***تنوع الشخصيات بين البشر والقوى فوق الطبيعية:*** تتداخل في الملحمة شخصية بشرية مع الآلهة أو قوى ميتافزيقية مما يعمق بعدها الأسطوري ويضفي على أحداثها طابعا خارقا.
6. ***تجاوز الوقائع المباشرة نحو المعنى الكلي:*** رغم استنادها إلى أحداث قد تبدوا واقعية أو إلى أبطال يحتمل وجودهم تاريخيا، فإن الملحمة تتخطى حدود الواقع الجزئية لتعبر عن رؤى كبرى، وعن مشاعر جمعية وأفكار ذات طابع شامل وتجريدي.
7. ***غالبة العنصر الحكائي على العناصر الغنائي:*** الملحمة في جوهرها حكاية تروى في قالب شعري فالبعد القصصي فيها هو الغالب، بينما يظل العنصر الغنائي محدودا.
8. ***الإكثار من الوصف والحوار:*** تتسم الملحمة بوصف مكثف للمشاهد وحوار واسع بين الشخصيات مما يمنحها حيوية وحركية سردية واضحة.
9. ***الحضور الديني والأسطوري:*** تعكس الملحمة المعتقدات الدينية للشعوب القديمة وتبرز الصراع بين القوى الخير والشر وهو ما يمنحها وظيفة تمثيلية للوعي الجمعي.

وأخير يمكن القول إن الملحمة ليست مجرد نص شعري مطول، بل هي شاهد فني وثقافي على تطور الوعي الجمعي للشعوب، وأحد أهم الأجناس السردية التي رافقت الإنسان منذ بداياته. فالملحمة جنس

---

[10]- المرجع السابق، ص81، 84

الأستاذة: خميسي

أدبي مركب يجمع بين التاريخ والخيال وبين الواقع والأسطورة، ويعكس فيه بجماله صورة الإنسان وصراعه الأزلي من أجل البقاء وتحقيق الذات وصناعة المعنى. وبفهم هذا الجنس الرفيع نقترب أكثر من فهم المخيال الإنساني عبر العصور .